التشابه بين المجتمع المصري و الأمريكي

من رواية مغامرات هاكلبري فن

للكاتب الأمريكي مارك توين

بقلم: رامي سيد عدلي مصطفى

عندما قرأت تلك الرواية الشيقة التي تحمل عنوان مغامرات هاكلبري فن للكاتب مارك توين شعرت بأنها نافذة تفتح على مجتمع لم أكن أعرف عنه الكثير من المعلومات في شتى المجالات والفروع المعرفية، فلم أكن أعرف ما الظروف الاجتماعية التي مر بها هذا المجتمع، وما يتمتع به المجتمع الأمريكي من عادات وتقاليد وفكر، و ما درجاته أو طبقاته الاجتماعـــــية. ولكن استطعت أن أتطلع للمجتمع الأمريكي حقًا من خلال حقبة زمنية مرّ بها، ليس فقط بقراءتي عن قصة لشاب فى فترة

المراهقة يتميز بروح المغامرة، ولكن أول ما أثار اهتمامي وشغل فكرى ورأيته في مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية – وهي مشكلة ضخمة يصعب غض النظر عنها- هي اليوجينيـــا التي كانت توجد في هذا المجتمع، فوجدت العبد والسيـــــد. ولقد وجدت التفرقة العنصرية في المجتمع الأمريكي في ذلك الحين، و تذكرت في ذلك الوقت مجتمعنا العربي قبل انتشار الإسلام، وكيف كان الرق والعبودية طاغيين عليه، وتلك القضية لا يمكن غض النظر عنها في أي مكان كانت توجد فيه.

لكن بانتشار الإسلام في الوطن العربي استطاع التخلص من التفرقة العنصرية بين البشر في شتى الفروع، فكما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح) فمن باب أولى لا يوجد فارق بين الأبيض والأسود.

ولقد استطاع المجتمع الأمريكي أن يتخلص من تلك التفرقة إلى حد كبير، والدليل على ذلك هو تولي باراك أوبامـــــا الرئيس الحالى للولايات المتحدة الحكم. وأيضا بفضل القانون الدولي العام الذي جعل من الرق جريمة على جميع دول العالم وليس في المجتمع الأمريكي فقط، بل أصبح الرق جريمة دولية.

وأيضا لاحظت في هذه الرواية كيف كان جيم الزنجي يعاني من العبودية رغم ذكائه المفرط وطموحه في تحرير زوجته وأولاده وبناء ثروة، وكيف كان ينظر إليه هـــاك في بداية الرحلة على أنه رغم ما يتمتع به من ذكاء واستغلال للأمور التي تحدث حوله على أنه زنجي عبد عند الآنسة واطـــســـون، وما فعله من هروب يعد جريمة. ولكن هاك هو نتاج لذلك المجتمع، فتأثر بما كان يحدث حوله، فعندما نشأ رأى أن الأبيض سيد والأسود زنجي عبد، فتربى على ذلك، ولكن عندما سار القارب وصاحب جيم تخلى عما كان يفكر فيه وتربى عليه، وبدأ يعامله كإنسان مثله تماماً ووقف بجانبه وأنقذه من الوقوع في الرق مرة ثانية، وأصبح لا يثقل على عاتق الزنوج ويخدم نفسه بنفسه.

وعندما نسير في أحداث الرواية مرة أخرى ونعاود طي صفحاتها نجد الثأر وهو لا يمكن تركه دون مناقشة والتوقف عنده، فعندما قرأت عن الثأر في رواية هاكلبري فن تخيلت أنه يتكلم عن صعيد مصر، ولكن اكتشفت أنه يوجد بنفس المفهوم هناك فى الولايات المتحدة الأمريكية . فعندما يحدث خلاف بين رجلين وشجار ويكون نتيجته قتل أحدهما الآخر، يقوم أبناء عائلة الثاني بقتل القاتل، ثم ترد عائلة الأول للرد بالمثل، وهكذا دواليك حتى يفنى الجميع من إخوة القتيل والقاتل، فينتقل الثأر تلقائيا إلى أبناء العمومة، وهكذا نجد أن ما كان يحدث في صعيد مصر يحدث بنفس السيناريو في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا مدعاة لإثارة الدهشة في التشابه الكبير بل التطابق بين المجتمع المصري والأمريكي في ذلك الحين وما يفضى إليه الثأر من هلاك وحزن وضياع للأسر وهيبة الدولة والقانون في المجتمع مما يؤدى إلى انهيار الدولة وضياع الحقوق بين الناس وانتشار الفوضى ولغة العنف والقوة لجلب واستقطاب الحقوق الضائعة والمأخوذة عنوة من أصحابها.

ولكن مع طي المزيد من صفحات الرواية والسير مع نهر المسيسبي ومغامرات هاك بين قرية وأخرى، فكان لزاماً علىَّ أن أقف لكي أرى ما هو إيجابي في ذلك المجتمع، والذي ينعكس على المرآة في الرواية من كرم الضيافة الذى يشتهر به أهل الجنوب، وكيف كان تمسكهم بكرم الضيافة، وهذا ما جعلني أتذكر مجتمع مصـــــر ومجتمعي الأكبر الوطن العربي، وكيف نحن وذلك الشعب الأمريكي كنا نشترك في تلك الأخلاق الحميدة، وما حثنا به الإسلام على كرم الضيافة والثواب العظيم لذلك .

وأخيرا كان لزاما علىَّ أن أتحدث في مقالي هذا المتواضع الذي بين أيديكما الآن على ذكاء ونشأة هاك فن الذي كان والده يعذبه ويطلب منه أن يصبح مثله، وكيف لعبت الآنسة واطسون دورًا كبيرًا في تربيته، وأيضًا كيف لعب جيم دورًا أكبر في تغيير فكره نحو الزنوج، لنرجع ونتحدث عن دهاء الطفل الذي استطاع بذكائه أن يخدع أباه، وأن يوهمه بأنه قتل رغم صغر سنه، بل استطاع أن يخدع القرية بأكملها وإيهامها بذلك، وهذا يجعلنا ننظر بعين العناية على أطفالنا وكثرة اعتدائنا عليهم بالضرب والإيلام النفسي يجعلهم يفرون من بيوتهم ولا نعلم إلى أين يذهبون، وهذا كان من أكبر أسباب انتشر ظاهرة أطفال الشوارع في مصر وعلى مستوى العالم فكثرة التعذيب والضرب للطفل يجعله يفكر فى الخروج من المنزل وهو لا يعلم إلى أين يذهب ويصبح فيما بعد غير راض عن مجتمعه الذي لم يحتضنه منذ صغره، ليخرج لنا مجرمًا قاسيًا على المجتمع كل يوم من الشارع، فلو أحسنا التعامل مع أولادنا منذ صغرهم، واحترام فكرهم المحدود، قلَّت معرفتهم بالحياة، وقلَّت تجاربهم لأصبح لدينا ذلك الطفل الذي سوف يخرج مجرمًا بفضل التربية الصحيحة محاميًا ناجحًا وطبيبًا فالحًا أو مهندسًا بناءً الخ،

فأرجو من كل أب يقرأ هذا المقال أو من كل من سوف يصبح أبًا أو أمًا أن تحسن معاملة أولادها بالحسنى والقول الحسن، وليس معاملته بالقول الخشن ليصبح كنزًا بالمجتمع، وليس ثقلا على عاتق المجتمع. وبذلك أكون قد أنهيت ما أريد قوله، وما رأيته حقا من عادات وأخلاقيات المجتمع

الأمريكي الذي تطلعت إليه من هذه الرواية والسير بين ضفتي نهر المسيسبي لأستمتع بالتشويق والأحداث المثيرة فى تلك الرواية.